على هامش معالم التقريب *

الفطرة الإنسانية، والاتجاه إلى الله

تكثر فى الزمن الحاضر، كما كثرت سلفا ويتوقع كثرتها فى المستقبل .. كثرت الدعوات الإسلامية، بيد أنها تفقد حيويتها ونفعها وإقناعها - إذا لم تفلح فى لفت المسلمين إلى دورهم ودور الإسلام فى نفع الإنسانية كلها .. فليس من المنطق، ولا هو فى مقدور المسلمين، أن يستقلوا بمصير منفصل عن مصير الإنسانية .

يلفت محمد عبد الله محمد إلى أن من يراجع اتجاه إبراهيم الخليل عليه السلام - إلى الخالق - يلاحظ ملازمته هو للخالق عز وجل، ومن يتأمل فى مقتضيات هذه الملازمة يدرك أنه من المستحيل مع الإحساس بها - أن يتمرد الآدمى على خالقه، ومن أسخف السخافات أن يأتى هذا التمرد باستخدام المخلوق ذات ما ركبه فيه خالقه وأعطاه له .. فهذه رعونة سخيفة وحفة عقل مصيرهما الحتمى إلى الانهزام والقهر !

ومن هنا كانت صفات القهار والمنتقم والجبار وأمثالها التى يصف بها الكتاب المجيد الخالق تبارك وتعالى، كانت تنبيها وتذكيراً لا غنى عنهما لهؤلاء السخفاء خفاف العقول !

إن تسليم إبراهيم للخالق ليس رضوخا لما يعجز الإنسان عن تغييره كالحر والبرد والمطر، مما ترضخ له الإرادة الإنسانية لأنها لا تملك حيلة ولا وسيلة لمقاومته، وإنما كان تسليم إبراهيم تسليما لله

---

* العالم ٢٠١١/٥/٤

عز وجل وتلبية راضية من قلب صادق مصادق، يعطى نفسه بلا شرط ولا مقابل ولا تحفظ، لمعنى التلبية : " لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك " .

إن ملّة إبراهيم، وهى ملّة محمد، عليهما الصلاة والسلام، قد فتحت أبواب الله لكافة الناس .. للإنسان من حيث هو إنسان .. لا لكونه صاحب علم أو فكر أو فلسفة .. فالفطرة الإنسانية هى الأساس والحال والمآل . يتجلى ذلك فى قوله عز من قائل : " فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ " (الروم ٣٠) .

إن الإنسان يشعر بإنسانيته حين يتجه إلى الله، وحين يدرك الصلة الوثيقة بين الدين وبين الأخلاق والإنسانية، وحين يلتزم بأن يكون له موقف أخلاقى .. يلبى فيه نداء فطرته .

ولا يكاد يوجد من يكفر أثر الفطرة، وأننا مدفوعون بدافع فطرى لأن نصبح على صورة أفضل .. وقد يقوى هذا الدافع فيحفرنا على أن تكون أكثر اقترابا من حقيقتنا كما تسلمناها من الله عز وجل - لا من المجتمع . إننا عندئذ نكون أكثر انقيادًا لهذه الحقيقة الداخلية، وانقيادًا لقانون وجودنا الداخلى الذى ينبع من أعماقنا صافيا نقيا لا تتطفل عليه أو تزاحمه ضيوف أو أوضار الخارج . إننا نكون أكثر أمنا وثقة لأننا فى دائرة الفطرة، وفيها تنفتح أعماقنا على خالقنا عز وجل انفتاحًا لا يصاحبه شعور بالغربة أو التحفظ أو الابتعاد أو يأس الوحدة والعزلة أو حسرة العجز .. عجزنا وعجز الآخرين عن نصرتنا تجاه المصير الذى نتصور أو نخشى أننا سنقابله منفردين .

مع الله، وفى اتجاه الله، تتمركز ذواتنا فى داخلنا . وتزداد سيطرتها على ميولنا المتضاربة المتحفزة للشرود أو الانتقاض أو الانشقاق .. هنالك تزداد ذات الإنسان وحدة وثباتًا وتمارس وتحفظ حريتها وإنسانيتها فى مواجهة العالم .

يقول محمد عبد الله محمد - إن العقل البشرى لم يشترك فى إبداع نفسه ولا فى إبداع الحياة، فالحياة أكبر منا بكثير، وليست من صنعنا أو اختراعاتنا .. إنها كأرض السوق التى ليست ملكا للمتبايعين فيها ..حالما فى الحياة كحال البائع الذى يفرش فرشته فى السوق ثم يطويها حين ينقضى يومه . ومهما انبسطنا أو انقبضنا فإن الحياة لن تتوقف ولن تغير مسارها وبواميسها من أجل انساطنا أو انقباضنا .

إننا نتفلسف ونتعلم ونعتقد العقائد أثناء استعمالنا للحياة داخل الحياة، وباعتبارها صورا - ليس إلا - للحياة .. ولا قيمة لعلومنا ومعارفنا وعقائدنا إلا مع احترامنا للحياة والأحياء ..

أما قول من يقول إننا نصنع حياتنا، فلا يعدو أن يكون إبرازًا بلاعيا لفوائد الاجتهاد والتعلم والابتكار، وإفساح فرص الترقى والتفتح فيها - فى الحياة - علينا وعلى الآخرين .. ولو تأملنا لعرفنا أن كل المبادئ والقيم والمسميات والمصطلحات والمثاليات والماديات وغيرها - ليست لها قيمة أو معنى إلا بالنسبة لآدميين يعرفون قيمة الحياة والأحياء .

والفطرة التى تحدث عنها محمد عبد الله محمد - ليست الطبيعة الحيوانية الجاهلة العافلة، وليست قبول القذارة والهمجية أو الغباء والخرافة والبلادة .. وإنما الفطرة هى تلك الاستعدادات والملكات والطاقات الدفينة الكامنة فى خلقة الإنسان التى خلقه الله تعالى

عليها .. هذه الفطرة التى إذا انطلقت تجعل لوجودنا معنىً تابعًا لوجودنا الإنسانى .

يعود بنا محمد عبد الله محمد، لينبه إلى أنه بين هذه الفطرة، وملة إبراهيم وهى ملة محمد - بينهما تداخل حتمى .. فالفطرة من الملة، والملة من الفطرة .. وإغفال الفطرة الإنسانية هو إغفال لشىء جوهرى جدًا فى الملة، لأنه يعفل تنمية وحفظ ملكات الإنسان واستعداداته وطاقاته، ويؤدى إلى إعاقتها، وهى إعاقة خطيرة للملة ذاتها !

هذه الفطرة هى فى ملّة إبراهيم ومحمد - قوام السير فى الاتجاه إلى الله من عصر إلى عصر .. من خلال مستويات النمو فى الملكات والطاقات الإنسانية، لا تتقيد خُطى الاتجاه إلى الله بمستوى عصر معين، إلاّ أن يكون هذا المستوى فى ذاته - مناسبا لفطرة الإنسان فى عصر تال، مسايرا لمطالب إنسانيته .. وعندئذ لا يكون هذا قيدا لخطى الاتجاه لله، بل اطرادا لمسيرة هذا الاتجاه من خلال مستويات النمو فى إنسانية الإنسان .